



في سرّ إقبال بدايات القرن على كمال جنبلاط الطريق الثالث ودينامية اللاعنف

شبل ملاء

صدور حشد من الكتب في الأشهر القليلة الماضية، جميعها مخصص لكمال جنبلاط، وبلغات ثلاث تربط الشرق بالغرب، من روسية وفرنسية وعربية، في موضوع مشترك، مدعاةً للتساؤل عن حيز الآفاق الدولية التي يرسمها، بعد ربع قرن من الصمت، هذا التضافر الغريب بين هذه الكتب حول شخصية معينة والاهتمام الذي يوليه إياها الجمهور المتعطش، والذي قد لا يكون مسبوقاً في سيرة المفكرين السياسيين، أو أهل السياسة المفكرين، ما عدا أعظم أعلامهم: ماركس، وودروو ويلسون، غاندي...

الحقيقة أن الصمت لم يكن مطناً، وقد تبعت تضحية كمال جنبلاط الكبرى منذ ما يقارب الجيل كتب عديدة، منها على مستوى رفيع، وتصادف ذكره كل سنة محاضرات شتى ساهمت في بعضها، كما أن الطبقات المتتالية لمجموعة مؤلفات كمال جنبلاط تنفذ باستمرار، لما يلاقي سجله المكتوب من ترحاب في الأوساط الشعبية كما المثقفة، ودائماً تذكر هذه الصرخة لقرائة راسلت جريدة "النهار" تستغيث بأندائها أن يقرأوه: "بربكم أقرأوا كمال جنبلاط".

صحيح أن الدراسة الجيدة التي أعدها الباحثة الألمانية برناديت شنيك سنة ١٩٩٤ قد لقيت إقبالاً كبيراً لدى القراء في طبيعتها العربية، إلا أن الكتاب الذي يشكل حلّ موضوعنا، وهو كتاب إيغور تيموفيفيف عن "دار النهار"، قد حطّم جميع المقاييس المعمودة، وقد نفذت أربع طبقات في أسابيع وجيزة (والطبعة الخامسة تنفذ قريباً). السؤال المطروح يتعدى الحرف إلى المكنوز التاريخي الذي يفتقده جيل سئم رتابة الحياة اليومية في سياسات لبنان والعالم العربي؛ فساد إلى من هو قادر على تأمين بعض ما يشفي غليله بالمستوى المطلوب، والتقى، بل اصطدم بكمال جنبلاط، لأن سيرته وفكره باتا إلزاميين incontournables.

لن نتحدث اليوم، كما دأبنا في السنوات الماضية، عن البعد الفكري الذي يتحلّى به بحث كمال جنبلاط الأدبي والفلسفي والسياسي، إلا أنه لا بد من إلقاء تحية عارضة لمؤلف شوقي أبو لطيف عن "كمال جنبلاط والوظيفة الاجتماعية للفلسفة"، وقد تميز بالسعة العميقة للمفاهيم التي يربطها المؤلف الشاب بتراث كمال جنبلاط الفلسفي، اقتطف منها مقطعاً طويلاً يجسد، باستعصاء أسلوبه ومعانيه، الآفاق الدولية التي تفرضها، رغم تبعثر نصوصها، رحلة كمال جنبلاط الفلسفية:

"إن اطلاع جنبلاط الواسع، وأبحاثه الدائبة، وقلقه الفكري، وقراءاته الكثيرة والمتنوعة، هي إشارات دالة على الطرق التي سلكها، في انتهاج سياسة للتقدم الاجتماعي، ولبناء الإنسان؛ لكننا إذا ما أخذنا في استخدام فكرة السببية، للإحاطة بمفاعلات المبادئ والأسس المعرفية، في الوقائع السياسية والاجتماعية، لن نوفق في الاهتمام إلى الفلسفة السلوكية للسياسة الكمالية؛ لأن الإشارات الدالة على الطرق تكاد، لكثرتها واختلاط صورها في الأذهان، تربكنا وتعيق مسيرتنا، أو تجعلنا ندور في دوامة من الالتباسات النظرية، التي تنطوي عليها المفاهيم المؤسسة للبناء الفلسفي؛ ففي مفهوم التعاون مثلاً، لا يخرج جنبلاط عن انتقائية تفرز المتعاونين، ولو كان ذلك على الأقل من وجهة النظر، كما أن مفهوم النضال ينطوي على وجودية حادة في آلامها، ومبرحة في غيرتها، وكأننا يعاد إنتاج الخلاص الإنساني في يوميات الفقر والجوع والمرض والجهل، وعلى قواعد جدلية غير مستقرة في الفلسفة السلوكية عند جنبلاط، بين الإغريق، والهنديين، والصينيين، والمتصوفة المسلمين، حتى لكأنه يوجد تحت كل عنوان ملحم من الأفكار

والمفاهيم، التي لا يمكن استيعابها في إطار من المقولات العقلية وحدها، وهي المبررة بتجاوزية الفكر إلى التحققات الصوفية، أو اليوغية، أو الصيرورة، وهي المندغمة في الحدس التأملي، قديمه وحديثه، في الفلسفتين: الشرقية والغربية؛ إلا أنها، وبالرغم من ذلك كله، تتصف بتماسك ظاهر في العناصر العقلية، التي تربط بين النقاط والعناوين من جهة، ومقاطع النصوص وهيكلها من جهة أخرى؛ لكننا الإشكالية تتسع، إذا ما لوحظت ملاسة المفاهيم للوقائع، وهي تنزلق في أكثر من اتجاه، وكأن لا إمكان لتلبسها إلا بحذق يختص به المعلم وحده دون التلامذة، والذي لا يفاجيء المتفرج، باعتباره أن الدعوة إلى اللاتقليد، هي مرتكز النموذج الكمالي غير المتكرر، أو هي تمتاج للفلسفة سلوكية تفهمها، بأداء سياسي متحرر، فيه من الخطورة، بقدر ما فيه من الأمل الواعد. حاجة الفلسفة هذه، إلى تكرار النموذج الكمالي غير المتكرر تحكم عليها بتوقف وظيفتها الاجتماعية عند اللحظة التي يتوقف فيها المراس السياسي للشخص المؤسس للمدرسة السياسية التقدمية في لبنان؛ لكن الشخص المؤسس قد تجاوز الفكر ذاته، وتجاوز الفكرانية intellectualisme، إلى مراقى الحكم، حيث عاش في عفوية جدلية، وقضى أضحية السلوك المتمرد على مألوفات اللعنة المعيشة؛ إذ، نحن أمام لغة صعبة... (ص ٢٦٢-٢٦٤).

هذا نص صعب فعلاً، لأنه نص فلسفي متين، مستوحى من تراث أثبت في هذا الكتاب، كما كان قد أوحاه عدد من الكتب السابقة بقلم عفيف فراج، ونبيل هادي، وخليل أحمد خليل، ما نحن في صدده من فكر قابل للتأويل، و"ضرورة التأويل" تشكل الميزة العظمى للفكر الذي يستحق الخلود، وقد عرف باختصاص حديث في الفلسفة الألمانية المعاصرة بهذا العنوان بالذات، Deutungsbedürftigkeit.



كمال جنبلاط الرجل والاسطورة
إيغور تيموفيفيف
دار النهار للنشر، الطبعة الرابعة،
بيروت، ٢٠٠١

فلا بأس من تطوير هذه "الرواية الكمالية"، كما يسميها شوقي أبو لطيف، بما جاء بلسان صديقنا الأستاذ فارس ساسين عن ضرورة كتب أخرى تخصص لفكر كمال جنبلاط، وقد يكون تشكيل "المدرسة الجنبلاطية" قد بدأ في الفلسفة.

لن نتحدث مطولاً عن الكتاب البدع الذي أشرف عليه مسعود يونس Kamal Joumbat, Images d'un destin، والصورة أحياناً أوفى في معناها من ألف صفحة، لكننا نأمل المزيد من الدكتور يونس في توسيع لمقدمته المؤثرة بعلميتها وأناقته.

هذه إذا لمحة سريعة عن المؤلفات الحديثة حول كمال جنبلاط، تتساءل عن سرّ مثل هذا الإقبال الشعبي عليها، وقد كتلتها كتاب تيموفيفيف بنجاح لا مثيل له. ولا بد من التوقف عند أسلوبه العربي المتين، الذي يحيي كلاً من المؤلف والمترجم لسلاسة لبنانية وعراقية نص تجعلان الكتاب وكأنه لم يترجم قط. فعدا أسلوبه والدقة، ما سرّ هذا الإقبال الشغوف من قراء لبنانيين وعرب نعرف جميعنا أنهم توقفوا عن القراءة؟ وما معنى نجاح "كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة" وإقبال الناس عليه جموعاً؟

بعض الجواب تحمله ثانياً الكتاب من المعلومات التي تجعله رفيقاً للقرن، فيشكل السر، من خلال سيرة الرجل، سجلاً لتاريخ لبنان في القرن العشرين، نختار منه فصلاً (هو الفصل السابع عن فترة الثورة البيضاء) غنياً بالمكتون المعبر عن مفاتيح السر التي نحن في صددها.

فالمقبة التي يهتم بها هذا الفصل هي الفترة الأولى لزعامه جنبلاط الوطنية، والتي أدت إلى استقالة رئيس الجمهورية في أيلول سنة ١٩٥٢. تنقسم معالجة الأحداث في هذا الفصل لثلاثة مواضيع تهمنا، نفتح أولها على "معمودية الدم"، وهي حادثة الباروك في ١٨ آذار ١٩٥١، أول لحظة دراماتيكية في العمل السياسي الجنبلاطي، والتي نتجت من انتشار الحزب الاشتراكي "كانار في المشيم"، ومن أول ردة فعل دموية من السلطة، أودت بحياة حمزة أبو علوان وفايز فليحان وملحم أبو عاصي من الحزب، كما مصرع الدركي بهيج شحوري، وهو الأداة السيئة الحظ التي اختارتها السلطة لتواجه بالرصاص ما لا يمكن أبداً معالجته بالرصاص، وهو تجمع آمن من الأهالي دعماً لمعتقدتهم، أكان هذا المعتقد غير مستساغ لأهل الحكم، أم كان غير محق أو غير ناجز في رأيهم.

تفصيلات الحادث ليست مهمة اليوم، لكن معاني التجمع أو التظاهرة، وكيفية الرد عليه من جانب السلطة هي باب القصيد. فهنا ملامح الجواب عن السؤال الذي بدأنا بطرحه عن سرّ الإقبال الشعبي العظيم على هذا الكتاب، لأن هذا الفصل بالذات، كما الفصول الأخرى بشكل متفاوت، يخاطبنا في يومنا الحاضر، يوم صعود المطالب الشعبي المسلم في قضايا مصيرية، وكيفية معالجة هذا المطالب من جانب سلطة لا تشترك في رسالته.

وليس من حاجة للإطالة، فتاريخ الثورة البيضاء معروف. إلا أننا، وفي هذه الحقبة الدقيقة من تاريخ لبنان، في أمس الحاجة إلى "انسجام

الشموع والشعلة المضيفة"، والفرق اليوم عن أيام الثورة البيضاء هي المعالم الموجودة في ضمائرنا، والتي يوثقها ملياً هذا البحث: فإلى التضحيات البشرية التي ازداد فراغ معناها عندما ترك الرئيس بشاره الخوري سدة الحكم مطواعاً، بجايه قارىء اليوم فصلاً موثقاً في مطاميرنا، من ملاحقنا، لما يحمل من معانٍ مطابقة لأعظم التحديات المعيشية، وأول هذه المعاني نبد العنف أسلوباً للتغيير، وثانيها ضرورة تفهم السلطة لعدم جدوى استعمال العنف أداة في وجه المطالب الشعبي، حتى إذا كان هذا المطالب مغايراً لمصالحها واقتناع ساستها.

وقد تتساءلون عن الشطط الذي بدأ يلازم موضوع "الآفاق الدولية لفكر كمال جنبلاط". لا شطط: فالشرق الأوسط مقبل على تداعيات كثيرة، وعلى خلط الأولويات في فلسطين والعراق وغيرها من الأقاليم العربية. الجواب واحد، وهو جواب الآفاق الدولية لفكر كمال جنبلاط، في المحاولة المستمرة لرفض العنف أداة أولية للتغيير. بل هنالك بعد أساسي للتغيير المقبل علينا في هذه الأوقات العصيبة، يمكن التعبير عنه في "اللغة الكمالية" عن "جدلية الواقع والمتحول" بضرورة تقديم أولوية اللاعنف على درب التغيير، وبالإرتكاز إلى السابقة العظيمة التي جسدها الثورة البيضاء.

فالآفاق الدولية المطلوبة هي تقديم هذه الأولوية في المطالب الجامع للسيادة اللبنانية على أرض لبنان بعموم حكم القانون اللبناني فيه، ويمثل عموم القانون في أي بلد عنوان هذه السيادة ومرادفها، لا قانون في لبنان إلا القانون اللبناني، هذا هو المطالب والهدف. أما الآلية فهي التي خطتها الثورة البيضاء، في دينامية اللاعنف: هذه هي رأينا رسالة لبنان إلى العالم العربي، والتي يؤديها شعبنا بتزودة وتواصل، فيما تفرغ طبول الحرب في الشرق الأوسط.

سوف نرى إذا هل ينصف التاريخ آفاق كمال جنبلاط الدولية هذه المرة، وقد خذله مرات. بل الآفاق الدولية في هذا الفصل السابع المحوري تحمل أيضاً على جناح المعرفة العميقة لكاتب روسي قدير في يوميات كمال جنبلاط واهتماماته الفسحة، فنرى في مشهد الثورة البيضاء مشاهد ثلاثة: أولها لبناني - شرق أوسطي، بدأ بمعمودية الدم في آذار ١٩٥١ وانتهى برضوخ الحاكم للمطالب الشعبي العارم في أيلول من السنة التالية. أما المشهد الثاني، فهو المشهد المعرفي في مقوماته الهندية، أي الرحلة المادية والروحية التي قام بها كمال جنبلاط إلى الهند في خريف سنة ١٩٥١.

كل ما جاء في الفصل موثق بشكل رائع، من الرحلة الطويلة برآ حتى لقاء نهرو والندوات الحاشدة مع الحزب الاشتراكي الهندي كما مع المعلمين الهندوس، فنشأة "القوة الثالثة" التي تجسدت في ما بعد في باندونغ وليس فقط في باندونغ، فالعالم أدرى اليوم بمعاني هذه القوة الثالثة التي قد يكون جمع تيموفيفيف أدرك معناها لأول مرة. ولا حاجة للإطالة في الآفاق الدولية لفكر كمال جنبلاط في هذا الشق الثاني، وهي الآفاق التي

وعدتهما وكستهما وسفهما
ما شئت من أدب ومن تمدين

ويقول في البيت الجنبلاطي:

للجنبلاط سجية خلقية
قد نزهت عن شبهة وظنون

ما طار فرخ نسورهم إلا وفي
منقاده غصن من الزيتون

والتلاقي الوطني اللبناني الذي حمله الى الخلود
"شاعر الأرز"، أجاب به كمال جنبلاط في
مهرجان ذكرى شبلي الملائط عام ١٩٦١، فقال
في خطاب مؤاساته: "... شبلي الملائط في حياته
وفي تصرفه وفي شعره، قطعة من هذا التاريخ
اللبناني الأصيل الحي الذي نحافظ عليه، في
زوايا قلوبنا المطهرة.

"... وشبلي وتامر وأسرتهما أصدقاء صدوقون،
تربطنا بهم ألف علاقة، وتشدنا أقوى الوشائج،
حتى تكاد تكون العائلة واحدة.

"وقد ترعرع بعض أبائنا وعمومتنا وأولاد عمنا
في بعدنا وفي المختارة على مقربة وعلى اتصال
دائم..

"... رحم الله شاعر الأرز، وعزى آله وذويه -
ونحن منهم - وديوانه يظل سجلاً حياً لمحب
خصبة من تاريخ لبنان. وحقبات هذا التاريخ لا
تتجزأ" (وجدي الملائط، شاعر الأرز، مدرسة
التلاقي الوطني، مؤسسة الرعيدي، بيروت،
١٩٩٩ ص ٥٣).

لا يزال العالم الحكومي اللبناني مقصراً حيال
كمال جنبلاط، وقد يكون بعض التفسير لرواج
هذه الكتب ردة الفعل الشعبية على هذا
التقصير، وهي ردة فعل الأوامم الذين لا
يعرفون لماذا لا تزال المسؤولية غائبة عن
تغيب كمال جنبلاط في ذلك النهار الأسود
من آذار ١٩٧٧، كما هي مفتقدة في تغيب
الإمام موسى الصدر، والرئيس رينه معوض
والكثيرين الكثيرين، من ليندا جنبلاط الى
صبيح الصالح، وكلهم عرفناهم في لحظات
مرت كالبرق، فخطفهم التاريخ عنا وعن
أحبابهم.

ولنا إن شاء الله موعد في حديث المسؤولية عن
تغيبهم، وتغيب المعات الذين نجعل
اسمائهم الغالية، في بلد حان له أن يعرف،
كما عرفت الجمهورية الفرنسية على جبهة
Aux grands hommes la patrie Panthéon
reconnaisante، أن أهم مقومات الأمة يحملها
رجالها ونسائها العظام، كما في البعد
الإنساني الثالث لآفاق كمال جنبلاط الدولية.
أليس هاملت أشهر رجل في تاريخ الدانمارك
كما يعرفه العالم؟ هذا البعد الإنساني يتألق في
خلود الأدب من السيرة والكلام، الى جانب
البعد التاريخي المعاصر في رسالة اللاعنف،
والبعد الدولي المتمثل بالبحث الدائم عن طريق
ثالث. وقد تشكل هذه العناصر الثلاثة بعض
مفتاح السر الذي تعالجه هذه الكتب، كما يشيد
به الإقبال العفوي الشامل على النهل منها ■

١- إيفور تيموفيف، كمال جنبلاط، الرجل،
والأسطورة، "دار النهار"، ٢٠٠٠

٢- Kamal Joumbat, Images d'un destin, Préface
de Masoud Younes, al-Masar, Beyrouth, 2000

٣- شوقي أبو لطيف، كمال جنبلاط والوظيفة
الإجتماعية للفلسفة، بيروت، دار الحدائق، ٢٠٠٠.

٤- برناديت شينك، كمال جنبلاط، التراث العربي
الإسلامي ودور الدروز في مفهومه لتاريخ لبنان، دار
النهار، ١٩٩١ (الأصل الألماني Kamal Gunbulat, Das
Arabisch-Islamische Erbe und die Rolle de Drusen in
seiner Konzeption der Libanesischer Geschichte, Ber
lin 1994.)



كمال جنبلاط التراث العربي
الإسلامي ودور الدروز في مفهومه
لتاريخ لبنان
برناديت شينك
ترجمة كامل اسماعيل
دار النهار للنشر، بيروت، ٢٠٠٠.

يبحث عنها رؤساء الدول أجمعون في عصرنا،
من "الطريق الثالث" التي اتصلت بأسماء
أنطوني غيدنز وطوني بلير وبيل كلينتون، الى
"فلسفة الرحمة" compassion التي يناصرها
الرئيس جورج بوش وأوساط الحزب الجمهوري.
كلها تبحث عن القوة الثالثة، أو الطريق الثالث،
التي ربما بدأت برحلة جنبلاط الى الهند في
خريف ١٩٥١، فنمت في باندونغ ثم خمدت،
الى أن أعيد إحيائها في قلب الغرب المحتر أمام
صلف الوقع المادي الذي تكرسه حضارته في
نهاية القرن العشرين.

وأخيراً وليس أخيراً، للآفاق الدولية في هذا
الفصل السابع طريق إنساني متميز، يتكامل مع
المنحيم الآخرين اللذين قدمناهما - المنحى
التاريخي المعاصر في الثورة البيضاء ورسالة
اللاعنف، والمنحى الدولي المتصل بالصوفية
الهندوكية كما بـ"القوة الثالثة" عن طريق تراث
غاندي ونهرو، وعن طريق الاشتراكية الدولية
التمثلة بالعرى الوثيقة التي حاكها معها كمال
جنبلاط. هذا البعد الثالث يتجسد في الفصل
السابع في رحلة الست نظيرة الأخيرة في ٢٤
آذار ١٩٥١، والحكمة الانسانية المؤثرة التي
رافقتها عند كمال جنبلاط. يكتب تيموفيف:

"وداعاً يا ملكة الدروز، إسمك منحوت على رخام
المختارة، والبرجيل الذي نظمه شعراء الجبل
الجوالون، وكنت تنشدينه عند مهد كمال،
يعنيك ويقصدك أنت بالذات:
قصر المختارة، قصر المختارة من جوّه لؤلؤ ومن
برّه حجاره" (ص ١٨٥).

وليس شعراء الزجل وحدهم ينشدون عن طريق
كمال ونظيرة سجل رجال لبنان ونسائه العظام،
فهذه الرابطة التاريخية العميقة التي تجمع أهل
الأدب والشعراء، كما كان كمال جنبلاط وكما
قيل إن نظيرة كانت، في "سجل حي لحقبة
خصبة من تاريخ لبنان"، هي البعد الثالث
الإنساني لتراث كمال جنبلاط الفريد الذي أحياه
هذا الكتاب.

حسبنا هنا العودة الى هذه المقدمة الثالثة، فقد
تكون أهم الآفاق الدولية الباقية في مساحة
زمنية تعد بالقررون. فكما أن صداقة سيف الدولة
وأبي الطيب المتنبي بقيت بعد ألف سنة جل ما
يذكر من بطولات العهد الحمداني، حسبنا تلاق
له وقع خاص في وفائنا لرجال أمتنا الكبار
ونسائهما، ومن أعظمهن الست نظيرة، حامية
العرين، يقول عنها "شاعر الأرز" شبلي الملائط:

"تشدد إن حشّن الزمان وإن يكن
لأنت كواحدة الطباء العين

عصمت نظيرة شبلياً ومهاتماً

Video provides a powerful way to help you prove your point. When you click Online Video, you can paste in the embed code for the video you want to add. You can also type a keyword to search online for the video that best fits your document.

To make your document look professionally produced, Word provides header, footer, cover page, and text box designs that complement each other. For example, you can add a matching cover page, header, and sidebar. Click Insert and then choose the elements you want from the different galleries.

Themes and styles also help keep your document coordinated. When you click Design and choose a new Theme, the pictures, charts, and SmartArt graphics change to match your new theme. When you apply styles, your headings change to match the new theme.

Save time in Word with new buttons that show up where you need them. To change the way a picture fits in your document, click it and a button for layout options appears next to it. When you work on a table, click where you want to add a row or a column, and then click the plus sign.

Reading is easier, too, in the new Reading view. You can collapse parts of the document and focus on the text you want. If you need to stop reading before you reach the end, Word remembers where you left off - even on another device.